مناقشة نظرية « أوچست كومت »

ولقد جاء زمن راجت فيه لدى بعض الناس نظرية « الأدوار الثلاثة » التى ذهب إليها الفيلسوف الفرنسى « أوچست كومت » - مؤسس المدرسة الوضعية التقليدية (١٧٩٨ - ١٨٥٧) - وتتلخص فى أن العقل الإنسانى قد مَرَّ بمراحل أو أدوار ثلاثة ، هى : الدور اللاهوتى أو الدينى ، والدور الميتافيزيقى أو التجريدى ، والدور الواقعى أو الوضعى - وهو الدور العلمى - وهذا هو ما يسمى « قانون الدَوْرة الثلاثية » .

فى الدور الأول كان العقل يبحث فى كُنْه الموجودات وأصلها ومصيرها .. معتمداً على الخيال .. فالظواهر تحدث بفعل كائنات غير منظورة تختفى وراء الطبيعة المنظورة ، كالآلهة والشياطين .

وفى الدور الميتافيزيقى ارتقى العقل ، فتخلَّى عن الكائنات غير المرئية ، ليردّ الظواهر إلى علل مجرَّدة خفية ، يتوهمها فى باطن الأشياء ، وهى معان مجرَّدة ، وبذلك أحل « المجرَّد » محل « المشخَّص » ، ووضع الاستدلال

موضع الخيال . أما الملاحظة والمشاهدة فتحتل فيه مكاناً ثانوياً .

وفى الدور الثالث - الواقعى - يتجنب العقل البحث عن أصل الكون ومصيره ، وعلله الخفية رأساً ، ولا يهتم إلا بمعرفة الظواهر واكتشاف قوانينها ، والعلاقات المطردة بينها ، ويقيمها على أساس من الملاحظة والتجربة ، لا من الخيال ، ولا من الاستدلال . وبهذا يهتم العلم بالإجابة عن السؤال : كيف حدث الشىء ؟ وليس عن السؤال : لماذا حدث ؟ (١) .

وعلى هذا يكون طَوْر التفكير الدينى . . يمثل - فى نظر كومت - مرحلة الطفولة للعقلية الإنسانية . . على حين يمثل طَوْر الفلسفة الميتافيزيقية مرحلة المراهقة . .

أما طَوْر العلم التجريبى فيمثل مرحلة الكهولة والرشد ، إذ ما عدا قضايا العلم الواقعى الحِسِّى لا يعدو أن يكون خيالاً أو كلاماً فى كلام .

---

(١) انظر : أُسس الفلسفة ، للدكتور توفيق الطويل ص ١٩٤ ، ١٩٥ - الطبعة الثالثة .

ويعبِّر عن ذلك فيلسوف ألمانى تأثر بـ « كومت » وهو « لودفيج فويرباخ » (١٨٠٤ - ١٨٧٢) فيقول :

« الله كان فكرتى الأُولى . . والعقل كان فكرتى الثانية . . والإنسان - بمحيطه الواقعى - هو فكرتى الثالثة والأخيرة » (١) .

هذه هى النظرية التى لا زال بعض الكاتبين فى ديارنا يرددونها ، ويتشبثون بها ، معلنين - فى تعالم وغرور - أنّ عهد « الغيبيات » قد طويت أعلامه ، بعد أن قامت دولة العلم ، وسقطت كل قضية لا يمكن اختبارها فى المعمل ! هذا مع أن المفكرين والنُقَّاد - فى الغرب ذاته - قد بيَّنوا زيف هذه النظرية الوهمية وبطلانها ، وأتوا على بنيانها من القواعد .

ومن أبرز الأدلة على بطلان هذه النظرية ما يلى :

إن « كومت » وأنصاره جعلوا من نظريته قانوناً يستوعب

---

(١) انظر : الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، للدكتور محمد البهى ص ٢٨١ - الطبعة الثانية .

التاريخ كله فى شوط واحد ، قطعت الإنسانية ثلثيه بالفعل ، ونفضت - أو كادت تنفض - يدها منهما إلى غير رجعة ، فلن تعود إليهما إلا أن يعود الكهل إلى شبابه وطفولته .

ولو أنهم جعلوا منه سلسلة دورية ، كلما ختمت البَشرية شوطاً ، رجعت عَوْداً ، لكان الخطأ فى هذه النظرية أقل شناعة (١) ، وربما كان « تاريخ المعرفة » فى الغرب يؤيد ذلك .

« فقد كانت معرفة الإنسان قبل تفلسف الإغريق ذات طابع دينى . . ثم أصبحت على عهد « سقراط » و« أفلاطون » عقلية . . ثم مالت بعد ذلك على عهد « أرسطو » إلى التجربة والواقع .

« ثم ابتدأت تجربة أُخرى من جديد ، فاعتبر الدين فى القرون الوسطى مصدراً للمعرفة . . ثم جعل للعقل اعتباره - بدلاً من الدين - فى عصر التنوير فى القرن الثامن عشر . . ثم قوى الميل إلى اعتبار المعرفة الحِسِّية

---

(١) انظر : الدين ، للدكتوْر محمد عبد الله دراز ص ٨٤ ، ٨٥

أو الوضعية وحدها - دون العقل والدين معاً - فى القرن التاسع عشر .

« هذه دَوْرة ثلاثية لـ « اعتبار المعرفة » فى تاريخ الإنسانية . فإذا كانت هذه الدَوْرة الثلاثية قانوناً لا يتخلف للمعرفة ، أو بالأحرى لاعتبار مصدر المعرفة ، فالمنتظر - بناء على سير التاريخ - أن يعود الاعتبار إلى الدين من جديد ، بعد أن قويت موجة الواقعية أو الوضعية فى القرن التاسع عشر . فتنكسر حدتها ، فتضعف ، فيقل اعتبارها ، وعندئذ يعود الاعتبار فى المعرفة للدين وحده » - كما قال أستاذنا الدكتور محمد البهى فى كتابه القيم « الفكر الإسلامى الحديث » (١) .

هذا هو منطق التاريخ الذى استخدمه « كومت » نفسه ، ولكنه لم يستخدمه بإنصاف وتجرد وموضوعية كما هو منطق « العلمية » الذى ينادى به ، بل كان فى أكثره - كما

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث ، للدكتور محمد البهى ص ٣٢٤ - ٣٢٥ - الطبعة الثانية . دار القلم - القاهرة .

يقول الأستاذ « فندلبند » فى كتابه « تاريخ الفلسفة » - يقوم على الهوى ، وعدم المعرفة ، والحكم المغرض [1] .

وهذا الذى ذكرناه مبنى على افتراضنا التسليم بوجود أدوار تاريخية ثلاثة متعاقبة . والحقيقة أن هذه دعوى لم يقم عليها برهان صحيح ، بل هى - فى اعتمادها على التاريخ - تحرِّف التاريخ ، وفى ادعائها الاعتماد على الواقع ، تصادم الواقع .

وماذا يقول فيلسوف الوضعية فى عصر ازدهار الحضارة الإسلامية ، وفيه نرى الدين والعقل والعلم ، تنمو وتزدهر وترتقى كلها جنباً إلى جنب ، فتجد الفقهاء والمفسِّرين والمحدِّثين والمتصوِّفة ، وبجوارهم الفلاسفة والمتكلمين ، وإلى جانبهم العلماء من الأطباء والكيميائيين والفلكيين والفيزيائيين والرياضيين .

بل ربما تجد الشخص الواحد يجمع النواحى الثلاثة فى شخصه ، كما يتضح ذلك فى سيرة ابن رشد الحفيد ،

---

(١) المصدر السابق ص ٣٢٣

صاحب « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » فى الفقه الإسلامى المقارن ، وأكبر شارح لفلسفة « أرسطو » فى تلك العصور ، وصاحب كتاب « الكليات » فى الطب .

وكثير من علماء المسلمين التجريبيين كانوا فقهاء ومتصوِّفة .

وهذا ما وقع ويقع فى تاريخ الأُمم كافة ، إلى اليوم .

فنحن ما زلنا نسمع ونرى فى كل عصر فريقاً يُقدِّس الروحانيات ، وآخر مشغوفاً بالمعقولات الكلية والنظرة التجريدية ، وغيرهما لا يعنى إلا بالحوادث الجزئية ومعرفة ما بينها من ترابط وجودى .

والملحوظ أن الدور الأول - الذى يقولون إنه يتمثل فى عصر ما قبل التاريخ وبدء العصر التاريخى - قد اخترعت فيه صناعات عن طريق المشاهدة ومعرفة طبائع الأشياء . . .

وفى الدور الفلسفى - الذى يقال إنه شمل العصور القديمة - قد وُجِدت فيه مشاهدات فلكية ومدنيات شرقية ، وعُرِفت هندسة « إقليدس » ، وطب « أبقراط » ، وطبيعيات

« أرسطو » ، وكيمياء العرب وفلكهم وطبهم وسائر علومهم التجريبية (كما ذكر لوبون وبريفولت وغيرهما) .

وفى الدور الوضعى - الذى هو طابع العصور الحديثة فيما يقولون - توجد كثرة غفيرة من دعاة الدين والقِيَم الأخلاقية والتأمل الفلسفى [1] .

بل نرى كثيراً من رجال العلم التجريبى - نفسه - وأقطابه فى القرن العشرين يؤيدون - بأسلوب علمى - حقائق الدين وينادون فى صدق واقتناع بوجوب العودة إلى الإيمان .

ونذكر من هؤلاء الأستاذ « كريس موريسون » رئيس أكاديمية العلوم فى نيويورك وصاحب كتاب « الإنسان لا يقوم وحده » المعرَّب تحت عنوان « العلم يدعو إلى الإيمان » .

ومنهم عالِم النفس التجريبى الدكتور « هنرى لنك » صاحب كتاب « العودة إلى الإيمان » الذى طُبِع حوالى خمسين مرة فى أمريكا وحدها .

---

(١) أُسس الفلسفة ص ٢٠٩

ومنهم ثلاثون عالِماً أمريكياً فى مختلف الاختصاصات ، كتب كل واحد منهم مقالة يبيِّن بها كيف عرف الله واهتدى إليه بوساطة علمه . ومن هذه المقالات تكوَّن كتاب « الله يتجلَّى فى عصر العلم » الذى نُقِل أيضاً إلى العربية .

فالواقع أن الحالات الثلاث التى يصوِّرها « كومت » لا تمثل أدواراً تاريخية متعاقبة ، بل تمثل نزعات وتيَّارات متعاصرة فى كل الشعوب ، وليست متناقضة ولا متضادة بحيث إذا وُجِدت إحداها تنتفى الأُخرى .

بل نقول ما قال أستاذنا المرحوم الدكتور دراز : « إن هذه النزعات الثلاث متعاصرة متجاورة فى نفس كل فرد ، وإن لها وظائف يكمل بعضها بعضاً فى إقامة الحياة الإنسانية على وجهها ، ولكل واحدة منها مجال يوائمها . ففى الوقت الذى نفسِّر فيه الحوادث بأسبابها المباشرة خارجية وداخلية ، فنقول : هلك فلان بضربة سيف ، أو لشيخوخة أو لمرض ، لا يزال كل واحد منا يفسِّر الحوادث الشاذة

الخارقة بالقضاء والقَدَر ، أو بسبب غيبى مجهول » [1] - أى مع إيمانه بالعلم الوضعى الواقعى .

إن المعرفة العلمية الواقعية القائمة على تتبع الجزئيات وتسجيل الظواهر والعلاقات بينها ، ليست هى قمة المعرفة الإنسانية ، ولا غاية النضج البَشرى .

فإن المعرفة العلمية التجريبية نفسها تحتاج إلى أساس فلسفى ، فإن الفلسفة - بمعنى النظر فى العلل والكليات وما وراء الظواهر والجزئيات - هى التى تقوم بتفسير الملاحظة والتجربة وغيرها من مقوِّمات العلم . . بل إن العلم نفسه ليس إلا حقيقة من الحقائق التى تعالجها الفلسفة فى نظرية المعرفة : كيف يكون العلم ممكناً ، وتحت أى ظروف نتصور هذا العلم ، وما أدوات العلم وما طبيعته ؟ . . إلخ ،

---

(١) الدين : للدكتور محمد عبد الله دراز - مطابع دار الكتب - بيروت . ص ٨٥ - ٨٦ ، وانظر : أُسس الفلسفة : للدكتور الطويل ص ٢٠٨ - ٢٠٩

أى إننا نحتاج إلى « علم العلم » : إلى تحليل العقل وقوانينه . وهذه كلها موضوعات تدخل فى مجال ما بعد الطبيعة [١] .

ومن هنا يقرر المرحوم الدكتور دراز [٢] أن الأمر على عكس ما ذهب إليه « كومت » تماماً : أن النظرة الواقعية تقع فى مبدأ الطريق لا فى نهايته ، وأنها تمثل مرحلة الطفولة النفسية ، لا مرحلة النضج والكمال ، ذلك بأن مبعثها الحاجة العاجلة وضرورة الحياة اليومية ، وبأنها وظيفة الحس لا العقل ، وبأنها من معدن القابلية والانفعال ، لا من معدن الفاعلية والإنشاء .

أما نظرة التعليل بالمعانى العامة فإنها تنبثق فى النفس على أثر ذلك ، متى استيقظت ملكتا التجريد والتعميم فى التصورات والأحكام ، فلا يكتفى الذهن حينئذ بجمع الحوادث المترابطة فى سلسلة متعاقبة ، كما تُجْمَع الأعواد فى الحزمة ، بل يحاول ربطها برباط معنوى تدور فى فلكه ، ويكون كالسلك الداخلى الذى ينتظم حبَّات العِقد .

---

(١) انظر : أُسس الفلسفة ص ٢٠٧ - ٢٠٩

(٢) « الدين » ص ٧٦ - ٨٧

ونؤكد أن المعارف الإنسانية لا تستحق اسم العلم حتى تأخذ بنصيب قليل أو كثير من هذا التجريد والتعميم ، الذى يضع كل مجموعة فى نطاق يضبطها ، تحت لقب مشترك يسهل به استحضارها ويكون لها بمثابة قانون كُلِّى تعلل به جزئياتها ، بل العلوم الواقعية تسعى الآن جاهدة للاندماج برمتها فى منظمة تنسقها وتُخضع جميع ظواهرها لناموس واحد ، وهذا هو ما يسمى بمبدأ « وحدة الوجود » بمعناه العلمى (Monism Scientifique) ، وسواء أبلغت العلوم هذا الهدف قريباً أو بعيداً أم لم تبلغه أبداً ، فالذى لا شك فيه هو أن هذه النزعة إلى استنباط المعانى الكلية لم تفتر بل تزداد قوة .

بقيت النظرة الروحية أو الدينية ، وواضح أنها لا تولد فى النفس إلا حينما يتسع أُفقها . فتتجاوز الكون بظاهره وباطنه إلى ما وراءه ، فهى أوسع النظرات مجالاً ، وأبعدها مطلباً .

وهكذا ينقلب الترتيب الذى تخيَّله الفيلسوف رأساً على عقب ، وتعود الحاجات النفسية الثلاث إلى أوضاعها

الطبيعية المعقولة : حاجة الحس ، فحاجة العقل ، فحاجة الروح . . وإن شئت قلت : حاجة الحس ، فحاجة العقل القانع ، فحاجة العقل المتسامى .

« على أن الذى يعنينا هنا ليس هو الوضع التقويمى لكل واحدة من هذه النزعات ، وإنما هو دخولها جميعاً فى كيان النفس الإنسانية . فكما إننا لا نجد أمارة واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية أو النزعة التعليلية ، كذلك لا نرى أمارة واحدة تشير إلى أن فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الإنسان ! يقول الفيلسوف الفرنسى « سالمون رياناك » : « ليس أمام الديانات مستقبل غير محدود فحسب ، بل لنا أن نكون على يقين من أنه سيبقى شىء منها أبداً . ذلك لأنه سيبقى فى الكون دائماً أسرار ومجاهيل ، ولأن العلم لن يحقق مهمته على وجه الكمال » (١) .

ويقول الدكتور « ماكس نوردوه » عن الشعور الدينى :

---

(١) انظر : الدين ص ٨٧

« هذا الإحساس أصيل يجده الإنسان غير المتمدين ، كما يجده أعلى الناس تفكيراً ، وأعظمهم حدساً ، وستبقى الديانات ما بقيت الإنسانية ، وستتطور بتطورها ، وستتجاوب دائماً مع درجة الثقافة العقلية التى تبلغها الجماعة » (١) .

ويقول « أرنست رينان » فى « تاريخ الأديان » : « إن من الممكن أن يضمحلّ كل شىء نحبه ، وأن نبطل استعمال العقل والعلم والصناعة . ولكن يستحيل أن ينمحى التدين ، بل سيبقى حُجَّة ناطقة على بطلان المذهب المادى ، الذى يريد أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الأرضية » (٢) .

* * *

(١) راجع : مادة « دين » فى « دائرة معارف القرن العشرين » للمرحوم محمد فريد وجدى .

(٢) المصدر السابق .

ملاحظة جديرة بالتنبيه

بقيت هنا ملاحظة جديرة بالتنبيه والتسجيل . وهى : أن إيمان « أوجست كومت » وأنصاره وأمثاله بالعلم وحده ، ورفضهم للأفكار التى تأتى عن طريق « الفلسفة » و« الدين » إذا حللَّنا دوافعه وظروفه التاريخية إنما يعنى فى الحقيقة أمرين :

● رفض تخرصات الفلسفة الميتافيزيقية :

الأول : رفض تخرصات الفلسفة الميتافيزيقية وتناقضاتها .

الفلسفة التى تطلب لنفسها الثقة والاعتبار العام فيما تذكره من أفكار وآراء عن الوجود ، وهى التى شرَّق فلاسفتها وغرَّبوا ، وبحثوا فى كل شىء ولم يكادوا يتفقون على شىء . وهذه - فى الواقع - هى حدود طاقة العقل البَشرى ، إذا سلك هذه المفازة - ما وراء الطبيعة - وحده ، دون دليل من هَدْى الله ووحيه المعصوم .

وهذا ما جعل الفيلسوف الألمانى الكبير « كانت » يُشبِّه العبارات « الميتافيزيقية » بأنها : « ورق نقد بدون ضمان »

وذلك ليبيِّن أن صنعة العقل الإنسانى فيما بعد الطبيعة لا تأتى بيقين حقيقى ، لأن العقل - إذا اجتاز مرحلة الإنسان ودائرته الحسِّية إلى دائرة فوقها أعلى منها - لم يستطع أن يأتى إلا بالظن والتخمين . فالعقل - بحكم أنه محدد بالبيئة والمكان والزمان والثقافة الخاصة والجو الطبيعى والاجتماعى والسياسى - لا يملك أن يأتى بيقين عن الوجود المطلق غير المحدد بالمكان أو الزمان أو بشىء مما يُحدِّد به الإنسان (١) . فالموجود المحدود لا يستطيع أن يتصور غير المحدود ، وكل ما يفعله أن يقيس وجوده على وجود نفسه ، وذلك ظن ، وليس بيقين . بل هو فى الحقيقة قياس فاسد ، إذ ليس ثمت جامع مشترك بين المقيس والمقيس عليه .

وما انتهى إليه « كانت » هو نفس ما انتهى إليه - أو إلى ما يشبهه أو يقرب منه - كثير من الفلاسفة والمفكرين قديماً وحديثاً ، وهو الجانب الذى أطلق عليه المفكر العربى المعاصر الدكتور زكى نجيب محمود : « خرافة الميتافيزيقا » !!

بل إن هذا يشبه ما انتهى إليه جماعة من أئمة علم

---

(١) انظر : الفكر الإسلامى الحديث للدكتور محمد البهى ص ٢٨٣ ، ٢٨٤

الكلام من المسلمين الذين خاضوا لجج العلوم العقلية ، فلم يظفروا منها بطائل ، حتى إن بعضهم تمنى فى ختام عمره إيماناً كإيمان العجائز ! (١) .

ومن أجل هذا قال أحد أساتذة الفلسفة (٢) : إن الفلسفة لا رأى لها ، وذلك لأنها فى مسائل ما وراء الطبيعة وما شابهها من القضايا الكبرى ، تقول الشىء وضده ، وتصدر الحكم ونقيضه ، يعنى : أن ما يقوله فيلسوف ينقضه آخر ، وما يبيِّنه واحد يأتى آخر فى عصره أو بعده فيهدمه من أساسه . وبهذا لا تستطيع الفلسفة البَشرية أن تعطى رأياً واحداً محدداً فى قضية كبرى ، فلا غرو أن يكون الوضعيون معذورين فى موقفهم من الفلسفة الميتافيزيقية . وهذا هو وضعها .

* *

---

(١) انظر : أقسام اللَّذات : للفخر الرازى ، والعقيدة النظامية : لإمام الحرمين الجوينى .

(٢) هو الأستاذ الدكتور عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة بجامعة الأزهر وعميد كلية أُصول الدين (ثم وكيل الأزهر فوزير الأوقاف وشئون الأزهر ، فشيخ الأزهر أخيراً) .

● المراد بالدين « دين الكنيسة الغربية » :

الأمر الثانى : إن رفض الدين والتنديد به إنما يراد به : دين الكنيسة الغربية حينذاك ، وما تتبناه من أفكار يرفضها العقل ، وينكرها العلم .. وهذا ما جعل عدداً من الفلاسفة يؤمنون بالله وبالدين ، وينكرون - فى الوقت نفسه - المسيحية ، مسيحية البابا والكنيسة والكَهَنَة [1] .

وليس أدل على هذه الحقيقة من أن زعيم المذهب

---

(١) انظر : الفلسفة الخُلُقية .. نشأتها وتطورها ، للدكتور توفيق الطويل - الطبعة الثانية ، ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، وفيه : أن « كومت » - رغم إعجابه بدعوة المسيحية إلى الإيثار والمحبة ومساعدة الضعفاء - أخذ عليها أنها جمدت والعالَم يجرى فى رِكاب العلم ، إذ ارتبطت بالكاثوليكية التى تعثَّرت فى مسايرة التقدم العقلى ، ومتابعة ما تقتضيه مناهج البحث العلمى . ثم ما لبثت أن جمدت وتصدَّت - دفاعاً عن وجودها - لمقاومة التقدم وعرقلة سيره . ومن هنا نشأ النزاع الذى أتى على الأخلاق المسيحية ، فراحت هذه ضحية الروح الكاثوليكية وجمودها . ومن أجل هذا انصرف « كومت » عن اتخاذ المسيحية أساساً للأخلاق الجديدة ، وتطلَّع إلى إقامتها على أُسس علمية وضعية .

الوضعى الواقعى - أوجست كومت - نفسه ، الذى كان يتنبأ بأن فناء الديانات سيكون هو النهاية الحتمية لتقدم العلوم ، قد عاد فى آخر أمره متصوِّفاً عجيباً ! وكلَّل حياته بوضع ديانة جديدة ، معبودها الأكبر هو : « الإنسانية » . وقد طبع هذه الديانة على غرار النظام الكَنسى للكاثوليكية ، فى عقائدها ، وطقوسها ، وأعيادها ، وطبقات قساوستها . رواية كاملة أعاد فصولها ولم يغيِّر إلا أشخاصها !! (١) .

ولعلّ « كومت » وكبار مدرسته لو عرفوا حقيقة دين كالإسلام ، اتسمت تصوراته وأخلاقه وأنظمته بالشمول والتوازن والإيجابية والواقعية ، وفسح المجال للعقل والعلم إلى أبعد مدى ، ما وجد نفسه محتاجاً إلى اختراع دين جديد ، ولوجد فى الإسلام ما ينشده وفوق ما ينشده (٢) .

---

(١) انظر : الدين ، للدكتور دراز ص ٩٤

(٢) قلت هذا عن « أوجست كومت » ونشرته منذ سنوات ، ولم أكن أعلم أن الرجل قرأ عن الإسلام بعض الشىء ، واعترف له بالعلمية والواقعية ، وهذا ما سجَّله المفكر العربى المسلم الدكتور رشدى فكَّار فى بعض بحوثه .

ومهما يكن الأمر ، فإن موقف « كومت » آخراً لشهادة ناطقة على أن الدين لم ينته دوره كما زعم ، ولن ينتهى دوره ما بقى الإنسان .

فالدين جزء أصيل من فِطرة الإنسان ، وحاجة بَشرية حقيقية لا غِنى عنها . وربما أمكن الإنسان أن يستغنى عن العلم ، كالبدائيين من البَشر ، ولكن لم نر جماعة فى مكان ما أو زمان ما ، استغنت عن الدين .

وقد نجد من الناس مَن يتمرد على الدين ، ويثور على التدين ، ولكنه فى الواقع إنما يتمرد على الزيف والتحريف فى الدين ، إنما يثور على دين وضعى أو دين محرَّف منسوخ ، كما وجدنا طبيب النفس الأمريكى الشهير الدكتور « هنرى لنك » ، مؤلف كتاب « العودة إلى الإيمان » الذى ثار على الكنيسة الغربية ، ثم رجع إلى الدين بعد تجارب ومشاهدات ردَّته إلى رحابه ، ولكنه فى الواقع لم يعد إلى دينه القديم ، كما حدَّثنا هو عن نفسه ، بل عاد إلى

دين فِطرى هو عند التحليل أقرب ما يكون إلى عقيدة الإسلام [١] .

فمن الخطل البيِّن القول بأن الدين قد ولَّى الأدبار ، أو أصبح فى خبر كان . فربما صَحَّ هذا القول بالنظر إلى أوروبا فى القرن الثامن عشر أو التاسع عشر . أما القرن العشرين ، فيسوده اتجاه قوى للعودة إلى الإيمان ، والرجوع إلى القيم الروحية ، والهداية الإلهية التى جاء بها رُسُل الله .

إننا نرى رجلاً مثل « توينبى » - أكبر مؤرخى هذا العصر وأحد أقطاب الفكر العالمى - يقول عن نفسه : إنه من المؤمنين بأن الدين هو أهم ما فى الوجود [٢] .

ويقول : « الدين إحدى المَلَكات الضرورية الطبيعية البَشرية . وحسبنا القول بأن افتقار المرء إلى الدين يدفعه

---

(١) انظر : كتابنا « الإيمان والحياة » فصل « بين العلم والإيمان » . وخصوصاً ما كتب تحت عنوان « الطب النفسى فى موكب الإيمان » .

(٢) مختصر دراسة للتاريخ : ٣/ ١٧٣

إلى حالة من اليأس الروحى ، تضطره إلى التماس العزاء الدينى على موائد لا نملك منها شيئاً » [1] .

ونجد كاتباً مطلعاً على الفكر العالَمى واتجاهاته المعاصرة مثل المرحوم عباس محمود العقاد ، يحدِّثنا عن جمٍّ غفير من أنصار الإيمان ، ودعاة الروح فى كتابه « عقائد المفكرين فى القرن العشرين » .

وفى كتاب « الله يتجلَّى فى عصر العلم » نجد ثلاثين عالِماً أمريكياً فى شتَّى تخصصات العلوم الكونية والرياضية وغيرها ، يكتبون - من خلال علومهم - مؤيدين للإيمان .

وينقل أحد هؤلاء عن العالِم الطبيعى والكاتب اللامع « أوليفر وندل » قوله : « كلما تقدَّمت العلوم ضاقت بينها وبين الدين شقة الخلاف ، فالفهم الحقيقى للعلوم يدعو إلى زيادة الإيمان بالله » [2] .

* * *

(١) نفس المصدر : ٣/ ١٧٩

(٢) « الله يتجلى فى عصر العلم » ص ٥٢